في قصر السلطان عبدالعزيز
لمحات من حياة مواطنٍ أو ضيفٍ لسلطان عربي(*)

أمين الريحاني

ترجمة: د. محمد بن منصور أبا حسين

يمتد صفان من المقاعد الطينية (دَكَّة) حول سور القصر في مدينة الرياض - عاصمة عبدالعزيز بن سعود، سلطان نجد - مكتظان بحشد من الناس ظننت لأول وهلة أنهم جاؤوا لرؤيتي ورفيقي السيد هاشم وقافلتنا الصغيرة وطباخنا "هويدي" وبقية الخدم، ولكنني نسيت لحظتها أن الفضول ليس سجية عربية. لقد كان هناك خمسمئة رجل كانوا منذ زمن قصير بدوًا يحترفون الترحال، يجلس بعضهم الآن بمهابة خارج القصر. وينتظر بعضهم الآخر في الفناء والممرات غير خانعين، بل بصفتهم شخصيات مهمة على موعد مع السلطان. ويبدو على بعضهم سيما الأمراء، بينما يتخذ أصحاب الملابس البالية من عصيهم الخيزرانية الملازمة لهم دائماً أداة للاعتزاز بالنفس، وترتاح نهايات العصي المقوّسة على شفاههم، وليس مهماً إن كانوا في حالة شرود ذهني أو في حالة تفكير عميق في أثناء وضعها على شفاههم.

يتكرر هذا المشهد مرتين يومياً، ويتناول هذا الحشد من الناس وجبتين كاملتين، ويخفي بعضهم تحت عباءته - المعروفة بالبشت في نجد - قدوراً وأوعية خشبية يملؤونها بالرز واللحم؛ ليعودوا بها إلى أسرهم المقيمة في خيامهم السود خارجِ المدينة. وليس لهؤلاء الناس عمل في زمن السلم، وإنما يشكلون جزءاً من جيش السلطان المستعد،

(*) Ameen Rihani : “In Ibn Saud's Palace” Asia, October, 1926 pp. 215-218.

إذا صحّت تسميته جيشاً، الذي يتحتم إطعامه وكساؤه وإبقاؤه راضياً، ويتقاضى معظمهم منحاً مالية (تعرف بالشرهة). حقاً إن الرياض مملوءة بالذين يعيشون على الصدقات والإعانات، والرياض في ذلك شأنها شأن مكة، حيث يعيش الناس هناك على سخاء التعاليم الدينية التي يمارسها الجميع.

وكانت الملابس توزع في أيام معينة مرتين كل عام، شتاء وصيفاً، ويقوم معظم المستفيدين - كما علمت - ببيع ما لا يحتاجون إليه. وهذا هو السبب في وجود عدد كبير من الدلالين ومن الباعة المتجولين المزعجين في الرياض. وهناك الذين يحضرون الهدايا إلى الرياض؛ فيعودون أكثر ثراء، وهؤلاء ليسوا من رعايا السلطان، ولكنهم حضروا من أماكن وقبائل قديمة معروفة للسلام يطوون الأميال ببطء، ويسافرون آناء الليل وأطراف النهار يحفزهم دافع الإعجاب أو الخوف - دافع ديني أو سياسي - والرغبة في السلام على السلطان.

تعرض على السلطان الأمور كلها دقيقها وجليلها. إذ يقوم رئيس التشريفات كل يوم بإعداد قائمة بأسماء الزوار الذين ربما بلغ عددهم مئة زائر أو أكثر، وبأسماء قبائلهم وبلدانهم وأهداف زيارتهم، ثم يقدم القائمة إلى السلطان، فيطّلع عليها، ويضع ملاحظة أمام كل اسم مشيراً إلى مقدار ما سيناله ذلك الرجل من الملابس والمؤن والنقود، ثم تُرسل القائمة - للتنفيذ - إلى رجل يعرف بابن شلهوب، وكان يتسم بالاستقامة والأخلاق الحميدة، وهو بكل تأكيد أكثر الرجال انشغالاً - بعد السلطان نفسه - في مدينة الرياض بل في نجد كلها.

وقد زرت ابن شلهوب يوماً في مكتبه بين مخازنه في الدور الأرضي للقصر، وكان جالساً متربعاً على سجادة، وأمامه أكياس الفضة، وإلى يمينه محاسبان، وإلى يساره موظفان أنيط بأحدهما أمر الملابس، والآخر أمر النقود، ويدفع ابن شلهوب "الربيات" أو "دولارات ماريا تريزا" للذين أحضروا الأوامر، ثم يسلمهم الملابس. وقد بيّن أنه

يقوم بمعظم العمل وحده، ووصف عمله بقوله: "إن الأمر في غاية البساطة، ألف يدخل فنسجله في الواردات، وألف يخرج فنسجله في الصادرات، والنتيجة - صافقاً كفاً بكف - لاشيء".

وهناك أيضاً إلى جانب المخازن في الدور الأرضي للقصر قاعة الطعام وقاعة الانتظار، حيث يُستقبل فيها المواطنون الزائرون قبل السماح لهم بالدخول إلى المجلس في الدور الثاني؛ وذلك لأن القصر لم يُبْنَ وفق خطة مسبقة، وإنما نشأ بالطريقة التلقائية التي هي سمة عربية مميزة.

لقد قضيت أيامًا عدة لأعرف طريقي في داخله، فدهاليزه طويلة الالتواء، وممراته كثيرة التشعب، وفيه على الأقل عشر بنايات متصلة بقناطر، وليس اتصالها بنفق تحت الأرض، والقصر شبيه بمنازل الكثيرين من رعايا السلطان في الرياض.

قلت للسلطان ذات مساء: "إن هناك سؤالاً واحداً يحيرني، ولا يستطيع أحد سواك إيضاحه".

قال جلالته: "اسألني عن كل شيء" فشكرته، ثم قلت له: "هل تعتقد أنه يجب شن حرب على المشركين الذين يدعون الأولياء مع الله في صلاتهم بهدف جعلهم موحدين؟".

فأجاب: "لا، لا"، صرّح دون تردد، ضارباً السجادة مرتين بعصاه، وتابع قائلاً: "خذ الحسا على سبيل المثال، فهناك ثلاثون ألف شيعي يعيشون بسلام وأمان، ولم يضايقهم أحد على الإطلاق، فلتطمئن يا أستاذ، فنحن لسنا كما يتصورنا بعض الناس".

ولكن بشاشة السلطان عبدالعزيز ولطافته لم تعلّم أهل عاصمته شيئاً، ولم تؤثر إطلاقاً فيما يغلب عليهم من روح ساخرة، لا تدخنوا، لا تغنوا، لا تلبسوا ثياباً حريرية، وإذا وجُد شخص في دكانه أو متوانياً في الشارع في أثناء وقت الصلاة فإن المتوجهين إلى المسجد يؤنبونه، أو على الأقل ينظرون إليه شزراً.

ومع ذلك، فلن أنسى كيف استجاب العرب بكل بسالة وشجاعة؛ إذا كانت الأوامر تصدر من الرياض، فيحملها النجباء إلى الأصقاع البعيدة في السلطنة؛ لتحديد موعد اجتماع عند بئر معلومة، أو في وادٍ محدد في يوم موعود. وفي ذلك اليوم الموعود وعند ذلك المكان المعلوم يجتمع آلاف الرجال من المدن والهجر الجديدة والمخيمات الصحراوية، كلٌّ على ذلوله، مسلح ببندقيته، متقلد عتاده، وحامل معه تمره وقربة مائه، مستعد لبذل جميع ما لديه في سبيل الله، يقول السلطان في ذلك: "نعطيهم في زمن السلم كل شيء، ولكنهم في زمن الجهاد لا يسألوننا شيئاً". يرفلون سعادة في إظهار الدين والعدل في مناطقهم.

إن المرء ليجدن في نجد مصداقية للمثل القائل: "إن العدل أساس الملك" أكثر مما يجدها في أي مكان آخر في الجزيرة العربية. فهناك يحترم هذا المبدأ نظرياً وتطبيقياً، وقد ظللنا نسمع عن عدل السلطان عبدالعزيز في أثناء سفرنا في البحر والبر في طريقنا إلى نجد وغيرها.

إن المرء ليجدن في نجد مصداقية للمثل القائل: "إن العدل أساس الملك"

وكان الأمن أبرز مظاهر عدل السلطان عبدالعزيز؛ يؤكد هذا أنني تنقلت لمدة خمسة أشهر في قلب الجزيرة العربية، وكانت حقائبي المكسرة الأقفال في قاطرة الحقائب، والتي غالباً ما تكون أمامنا، ومع ذلك فلم أفقد شيئاً على الإطلاق ولا ورقة واحدة. وليست هذه تجربتي الشخصية فحسب - لأنها تجربة استثنائية - وإنما يشهد العرب المسافرون أيضاً باستتباب الأمن في كل مكان يصله نفوذ السلطان عبدالعزيز.

وهل عدل السلطان عبدالعزيز إلا الشرع؛ التشريع القرآني - عدل الرسول ﷺ؟ فالفرق بين الشرع في نجد وفي غيرها من البلاد العربية الأخرى أنه بكل اختصار يطبق في الأولى دون محاباة أو

تمييز، فكل الرؤوس المذنبة والأيادي السارقة متساوية، وشيء واحد بالنسبة للقاضي والجلاد. لقد قُطع العديد من الأيادي اليمنى في الأيام المبكرة من حكم السلطان بسَبب السرقات، وكم من رؤوس تدحرجت على الأرض بسبب جريمة ربما خُفّف الحكم فيها في أقطار أخرى وضمن ظروف مختلفة أو ربما صفُح عنها.

حضر بعض الرجال من قبيلة بني مُرَّة ذات يوم إلى القصر في الرياض للغذاء والكساء، وغادروا بعد أن حصلوا على نصيبهم، وفي طريقهم إلى الحسا صادفوا قطيعاً من الجمال فأخذوه؛ فرفع الراعي الأمر إلى السلطان في الرياض، فأرسل نجاباً إلى ابن جلوي، وحينما وصل النجاب أرسل الأمير أربعمئة من رجاله، مئة رجل في كل اتجاه - الشمال والشرق والجنوب والغرب - للبحث عنهم والقبض عليهم. وفي أقل من أربع وعشرين ساعة قبض عليهم.

قال السلطان: "إن الفض هو الذي يرى بعين رأسه فقط، أما الرجل فهو الذي يرى أيضاً بعين قلبه". لقد كان هدفي دائماً أن أرى بعينيّ خلال ترحلي في الجزيرة العربية، وعلاوة على ذلك أن أرى الحقيقة "بعين القلب" على رغم أنه تحتم عليّ اختراق مئات الحجب التقاليدية والعاداتية.

حينما كتبت ذلك في مذكراتي كنت سجين الملاريا في القصر، وهمست الحمى لعدد من الأيام في رأسي تلك الكلمة التي تنتهي فيها كل الأشياء. وجاء أخي السلطان عبدالعزيز بن سعود إليّ حاملا آخر المكتشفات الطبية، ترمومتراً في يد، وفي الأخرى زجاجة عصير ليمون صغيرة، وكان وجهه مشرقاً في الغرفة، وكانت كلماته كوزاً من ماء نبع صافي "سوف يكشف هذا، اقبض عليه بيدك، عما إذا كانت حرارتكم فوق الحرارة الصحية". وقال: وهو رافع الزجاجة، "وهذا"، سوف يخفف ويبرّد أحشاءك. هل تناولت كينكينة (الكينين) هذا اليوم؟ أبقاك الله وحماك من الشر. تناول الكينكينة ثلاث مرات يومياً".

فأجبته شاكرًا صنعه: "أبقاكم الله يا عزيزي عبدالعزيز، يا صديقي النبيل، ويا طبيبي العظيم، لن آكل شيئاً آخر سواها".

لم تر الغرفة الكبيرة - التي أقمت فيها - أشعة الشمس طيلة النهار؛ وساعدتني الحمى على اكتشاف أنني أنا أيضاً عطن ومتعفن وظهور المساند المواجهة للجدار وكان عليها شيء شبيه بالعطن. وعلاوة على ذلك فقد كان الغبار في كل مكان؛ على السجاجيد الفارهة وتحتها، وعلى الطاولة، وعلى سريري وعلى ملابسي، وبعد ذلك يدخل هويدي، غامساً إصبعه في كأس الحليب، وفي الوقت نفسه يقف السيد هاشم - المسؤول عن راحتي - بالقرب من النافذة مع مرآتي الفضية - الشيء الوحيد الباذخ الذي أحمله معي - في يده، مصلحاً عقاله على رأسه، وواصفاً بشكل غير رسمي لمصلحتي صعوبة الطريق إلى الكويت، ويكرر دائماً، كما يعيد شخص نغمة "لا ماءَ إلا في الحفر"، قلت له: "ربما أموت يا سيد هاشم، قبل الوصول إلى الكويت".

فأجاب هاشم برباطة جأش: " يُعمر الفلاسفة طويلاً يا أستاذ، وافترض أنك مُتَ في الطريق، فإنك لن تحزن؛ فقد رأيت الرياض والإخوان، ولهذا السبب فسوف يسمح لك بدخول جنات النعيم، فأي سعادة أكبر من ذلك ترغبون؟".

وجاء السلطان لرؤيتي ذات يوم ومعه جزء من خريطة الجزيرة العربية باللغة الإنجليزية؛ ليُريني المسافة بين حائل والرياض، وخطر لي في أثناء تفحصي الخريطة أن أقدم له خدمة من خلال ترجمة الأسماء إلى اللغة العربية، وكان مسروراً بالفكرة، ومتردداً في قبول خدمتي، مراعاة منه لضيفه المريض، فقلت له: "ولكنني حينما أتعافى، ربما لا يتوافر لدي الوقت"؛ عندئذ سمح لي بذلك.

كان ثمة ثلاثة أجزاء أخرى تقارب في حجمها الجزء الذي اطلعت عليه؛ وحينما وضعت أجزاء الخريطة جنبًا إلى جنب، رأيت ضخامة

المهمة التي اقترحت القيام بها، فأمامي أكبر خريطة؛ فالنسبة القياسية هي: ١٠٠٠,٠٠٠ للمسافة الفعلية للجزيرة العربية، وكانت الخريطة غير دقيقة في قراءة الأسماء العربية، والأكثر إزعاجاً من نزوات هذا المستشرق كان تأخر الخدم في الحصول على المواد اللازمة للعمل، فقد استغرق الحصول على الآجر الأحمر يوماً، ويوماً آخر للحصول على قلم العصب. وحينما أنجزتُ الترجمة احتجت إلى صمغ أو معجون؛ لتكتمل الخريطة، ولذا فقد أرسل ثلاثة من الخدام، في اتجاهات مختلفة؛ وبعد ثلاثة أيام أحضروا بودرة ممزوجة بماء حار لتصير معجوناً، وكان كل شيء على ما يرام، وكان لدي لحسن الحظ مقصٌ لقص هوامش الخريطة، ولكنني في حاجة إلى عصاوين؛ لطي طرفي الخريطة، وليتسنى تعليقها تلبية لرغبة السلطان، ورأيت أن أفضل شيء متوافر هو جريد النخل.

وتطوع هويدي للبحث عن جريد النخل، واختفى لمدة يومين. وفي اليوم الثالث جاء خالي الوفاض. وفي أثناء سخطي أصابتني الحُمى، فأخذ يلاطفني بقوله: "الله يحفظكم ويمنحكم الصحة، لقد أسرعت من أجلكم، وكان علينا أن نتصل بمزارع النخيل؛ لنقطع السعف فنبريها لتصير كما طلبتها، والآن وحيث إنه يجب إدخال المسمار وإبقاؤه ثابتاً فيهما، فيجب أن نتركهما معرضتين للشمس حتى تجفا".

فقلت هويدي: "بسببك سوف آخذ إجازة لمدة أسبوع إلى أن تكون العصاوان جاهزتين". ثم أدركت أنني أوشكت أن أنسى الحبل، ولكن ماذا يعني تأخير يوم آخر ؟... وبعد أن تم كل شيء؛ فإنني أعتقد أن العمل يستحق الساعة الذهبية التي وهبني إياها جلالته بعد أن علقت الخريطة.

وبسرعة شاعر سمحت لخيالي أن يبدأ في التفكير في الإجازة التي سأتمتع بها لمدة أسبوع، ولكنني نسيت السيد هاشم وهويدي، فقد حضرا يلتمسان مساعدتي. وقصّ علي السيد هاشم مأزقه، فقد

اشترى حينما كان في البصرة قماشاً صوفياً ناعماً، وحيث إنه صوف طبيعي فقد كان له رائحة غير سارة. وبالنسبة لجلالته الذي يتطيب، كما أعرف جيداً بإسراف، فإن القماش الصوفي بالمقابل كان أكثر إزعاجاً. فلن يرتدي الصوف إن لم يتم التخلص من الرائحة، وكان السيد هاشم المسؤول عن ذلك قد سلّم قماش الصوف إلى هويدي؛ ليغسله فغسله جيداً بالماء والصابون، وبعد أن انتهى من ذلك شاهد بتعجب وخوف أن القماش قد انكمش بشكل فاجع، فما الذي يمكن عمله ؟ مط القماش؟ ومط القماش بكل ما في يديه الخشنتين من قوة، ولكن القماش يعود إلى الانكماش ثانية.

ولكون هويدي قد زار مدينة البصرة فرأى مكواة الثياب، أو سمع عنها، وكان في القصر لحسن الحظ مكواة فأحضرها وكوى بها القماش، ولكنها لم تعمل في الرياض كما في البصرة، ويبدو أن الأسفار قد سلبتها ميزتها. والآن لكي أتجاوز هذه المشكلة يجب عليَّ حل الكثير من الأسئلة: فلماذا لا تعمل مكواة الثياب؟ ولماذا لا يبقى قماش الصوف ممطوطاً؟ وما الذي يمكن عمله لإعادة ميزة المكواة، والحجم السابق لقماش الصوف؟ هل يمكننا الآن عن طريق ضغط المكواة على القماش أن نمطه، ونبقي رائحته النظيفة، ونعيده دون رائحته إلى حجمه السابق اللائق بالسلطان؟!

وأحضرت المكواة والقماش إلى محكمة التفتيش: "أين الجمر؟" لم يعتقد هويدي أن المكواة تحتاج إلى جمر! " أين الماء؟" لم يعتقد أنها تحتاج إلى ماء! "أين قطعة القماش؟" لم يعتقد أنها تحتاج إلى قطعة قماش!.

واحتواني السيد هاشم بعينين متأملتين ومعجبتين، ووضع الجمر في المكواة، وبسطت القماش على الطاولة؛ وإناء الماء قريباً، - وتحولت من عربي أمريكي سوري - وبسطت كل قطعه على الطاولة ورششتها بالماء كالحوت، وبللت إصبعي بلساني، ثم لمست بطن المكواة،

فوجدتها جاهزة للعمل، وعلى رغم أن يدي مصابة بالروماتيزم (داء المفاصل)، إلا أنني دفعت المكواة بعنف إلى درجة أنه بعد يومين، وحينما كان السلطان مرتدياً بدلة من ذلك الصوف الناعم أصبحت الأكمام طويلة إلى درجة أنها أفسدت القيمة الجمالية لأكمام بشته المفتوحة الواسعة.

وقد نسب السيد هاشم هذا العمل إليه؛ لكي ينقذ سمعتي، وذلك مقابل ما حصل عليه من ساعة فضية.

ثم تساءلت: "هل هي عادة السلطان؟ أن يهب ساعات فقط مكافآت؟" أجاب السيد هاشم: "لا بالله! إنه يهب الملابس والطعام والنقود - لقد رأيتَ ذلك بعينيك - حتى الأرقاء والرقيقات، اطلب منه واحدة، والله يا أستاذ سوف يهديك واحدة".

صحبني جلالته ذات يوم إلى سطح القصر؛ ليريني البرج الذي يوجد فيه مصباح متوهج يبعث أشعةً تخترق حقول النخيل المحيطة بالرياض، إنه منارة مضيئة تهدي القادمين من الصحراء أو الوادي. وبعد أن صحبني إلى البرج توجه بي إلى جناح آخر من القصر؛ ليطلعني على المدافع والبنادق الواقعة على سطح بناية مجاورة ذات شرفات ثمان، وكان مجموعها تقريباً خمسين قطعة، صنُعت في إنجلترا وألمانيا، غنمها من ملك الحجاز السابق ومن الأتراك، ومن ابن رشيد.

قلت في نفسي: سيكون الأمر أفضل لو اختصر جلالته الجولة في القصر، وأطلعني على منطقة الحريم. ولابد أنه قرأ أفكاري؛ لأنه في مساء ذلك اليوم، بدلاً من زيارته لي كما هي العادة، منحني امتياز شرب القهوة معه في إحدى مقصوراته الخاصة جداً.

كان علينا أن نعبر متاهة، لكي نصل إلى المقصورة، وكان المصباح معلقاً في مدخل يفضي إلى غرفة صغيرة مريحة، مؤثثة على الطريقة المعتادة، بالسجاد والمساند، ليست لها نوافذ ولا فتحات.

ولكن السلطان لم يكن ضد إظهار المناقب المخبوءة في غرف جلوسه، فقد نهض وسحب حبلاً، فانفتحت فجوة مربعة في الحائط بقرب السقف، بين جلالته أنها وضعت "لدخول الشمس والهواء". ثم أشار إلى سيف معلق على وتد، وقال: "إنه أحب ممتلكاتي"، وأمر خادماً أن ينزله. وكان مقبضه مرصعًا بالذهب، وغمده فضة خالصة. ويبدو أن عمر هذا السيف أكثر من مئة سنة؛ لأنه سيف - سلفه - سعود الكبير، وتبدو شفرته أكثر قِدماً. تناوله السلطان بيده وأخبرنا كيف قتل به أحد أعدائه الأشداء، وكان ذلك ثأراً، وهي عادة مشروعة ومحترمة. "لقد كانت لحظة سعيدة؛ فقد قَبَّلْتُ السيف".

ثم أحضر صندوق العطور الجلدي، وأصر على تطييبي من مختلف الزجاجات: عطر على لحيتي، وآخر على غترتي، وثالث على صدري، وكانت العطور ثقيلة كزيت الورد الصافي. أما السيد هاشم فقد جرب جميع العطور بشكل متهور؛ ففاحت الغرفة بالروائح، وبدأ رأسي يسبح؛ وأوشكت على الإغماء. وقال السلطان للسيد هاشم ضاحكاً: "لا يعرف السيد حدوده"، وفي الحال قدّم لي مروحة يدوية.

وفي اليوم التالي كان المشهد أكثر وضوحاً لما يقع خلف البوابة الجديدة التي اختفى خلفها السلطان في ليلة البارحة عبر القنطرة؛ لأن جلالته بصفته دليلي عَبَر بنا ثلاثة أسطح وقنطرتين وعددا من الممرات؛ لكي يصل إلى مقصورته الخاصة، حيث يمكننا رؤية صف يتكون من خمسة أو ستة مبان ضخمة ذات أعمدة وشرفات. وقال جلالته: "تلك منطقة الحريم، كل واحدة لها منزلها الخاص". وفي الردهة - حيث تناولنا القهوة - كان هناك بابان يفضي أحدهما إلى المسجد الخاص الذي يصلي فيه السلطان، ويذهب للصلاة في المسجد الكبير يوم الجمعة فقط، والباب الآخر يقود إلى المقصورة التي لم تدخلها امرأة قط.

وقبل أن يغادرنا ذلك اليوم أطلعني على المكان - ساحة رباعية الزوايا نطل عليها - الذي يمكنني أن آخذ منه صوراً لوليمة الزواج. فقد كان في القصر حفل زواج في اليوم أو الليلة السابقة، وكان العريس أحد شباب الأسرة السعودية، وقد كان في الواقع صبياً في الثالثة عشرة من عمره. قال السلطان: "يريد أن يتزوج، فزوجناه"، وكانت زوجته هي ابنة عمه ذات الاثني عشر عاماً.

لقد كان السلطان في هذه المناسبة هو الذي أقام حفل الزواج؛ لأن أقارب الزوجين، ووالديهما هم الذين يذبحون الخراف والجمال لمن شاء الحضور، فالكل على الرحب والسعة. والْتَهَمَ ما يزيد على ثلاثة آلاف شخص في أربع أو خمس جلسات الرز واللحم. وأطلعني ابن شلهوب على التكلفة بقول مؤكدٍ بالقسم: "والله! إنهم لم يخبروني لقد أعطوني يوماً واحداً فقطٌ للإعداد للحفل، ورأيت النتيجة. نعم فإن لدينا قدوراً لطبخ جمل بأكمله. ذبحنا ثمانين خروفاً وثلاثين جملاً، وأفرغنا عشرين كيساً من أجود أنواع الرز".

وامتلأت ثلاثة أفنية مفتوحة - إلى جانب صالة الطعام - بالحضور. جلس الناس من الطبقات كلها في صفوف متقابلة، ووضعت الصواني الكبيرة النحاسية على سُفر مستديرة بين مجموعتين تتكون من عشرة إلى عشرين شخصا. وحالما تم ذلك تحلقت الصفوف في دوائر حول الرز واللحم، وشمر كل شخص أكمامه، وانتظروا السلطان الذي جلس بين الحاضرين ليبدأ. ثم أعطى الإشارة متحدثاً، وتلا دعاءً، وكان أقصر دعاء، وأكثر تأثيرا سمعته في حياتي. قال بصوت عال: "اذكروا الله: يذكركم". وظلت أيدي الضيوف معلقة فوق الوليمة اليومية للحظة، ثم انقضت عليها. وكنت أشاهد الوليمة من الساحة مع السيد هاشم، وأحاول وضع آلة التصوير الفوتوغرافي فيما بين الشرفتين لأخذ صورة للمشهد. ولكن هناك عيون الإخوان التي تراقب الوضع، وتمتعض من التصوير؛ ولذا

فقد تعاورني التردد والتعجل، وفشلت في المحاولة، ولكن سعادة المغامرة كانت في نهاية الوليمة، حينما جاء السلطان، وفاجأنا في الدرج، يضحك.

وتحدث ابن شلهوب الفاضل، بحكمة قائلاً: "رأيت بعينيك الاثنتين. والآن دون في كتابك - إن ما أخبركم به الآن حقيقة - أكتب أطال الله عمرك؛ كل ملك في العالم يساعده شعبه؛ ولكن شعب نجد يساعدهم ملكهم".

بعد أن حاولت إعطاء صورة صادقة عن الرياض يجب ألا أغفل أهم شعور كشفه لي السلطان عبدالعزيز بن سعود نفسه؛ إذ يشعر أنه غريب في عاصمته لولا توافد الناس إلى مجلسه كل يوم. ولو لم يكن حاكماً للبلاد يرعى هؤلاء وشؤونهم لما عاش في الرياض يوماً واحداً، فهو في الحقيقة فوق أكثر القادرين وأفضل الخيِّرين؛ نخلة في حقل مبعثر بعد الحصاد، وشجرة سنديان وحيدة في وادٍ من العلِّيقِ والشوك.